

العنوان:	الطب والاستعمار في مغرب الحماية : قراءة في أطروحة الباحث المغربي رضوان شعايبي
المصدر:	مجلة ليكسوس
الناشر:	محمد أبيهي
المؤلف الرئيسي:	الزاوي، مولاي عبدالحكيم
المجلد/العدد:	ع26
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2018
الشهر:	يوليوز
الصفحات:	55 - 61
رقم MD:	900567
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الطب والاستعمار، شعايبي، رضوان، التاريخ المغربى
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/900567

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.





تمهيد:

تسبر أطروحة الباحث المغربي رضوان شعايبي شعاب العلاقة الماكرة بين الطب والاستعمار، الأخلاق والهيمنة، العقلانية والاديولوجيا بمغرب الحماية الفرنسية 1912-1956، وهي صورة من ضمن صور أخرى مماثلة أسست لالتقاء ماكر بين العلم والسياسة، رسمت مغربا معطوبا يجر وراءه قرونا مديدة من العجز الباتولوجي البنيوي، جعلت بتعبير دانييل ريفي علاج الجسد المغربي يقترن بالحفاظ على سلامة المدينة الاستعمارية(2)، مغرب موبوء من الداخل، تغيب عنه التقاليد الصحية، ينتظر خلاص الطب الأبيض من الكارثة، صورة عصفت بالتجارب المحلية في التطبيب والاستشفاء ورمت بها في خانة الإدانة والازدراء، بمقاسات الاثنومركزية الأروبية.

كيف نقرأ هذا الالتقاء بين الطب والاستعمار بعد فتور جذوة الحماس الوطني ضد استوغرافيات الأجانب؟ وكيف يستقيم راهنا تقييم المنجز الطبي الاستعماري عن مجتمع الحماية ومن ثمة النفاذ إلى محاولة إعادة قراءة للجسد المغربي المعاصر؟ وهل كان الطب الاستعماري فعلا عملا إنسانيا بغض النظر عن خلفياته الاديولوجية؟ لماذا أخذ الفرنسيون منذ البداية دراسة أحوال الصحة بالمغرب؟ ألا يحيل ذلك على تداخل الاستعماري بالطبي والطبي بالاستعماري؟ ثم أوَ ليست العمليات الوقائية الاستعمارية لا تكاد تعدو سوى نوعا من الديكتاتورية الصحية بتوصيف دانييل ريفي؟

تحاول أطروحة الباحث رضوان شعايبي تفكيك العلاقة بين الطب والاستعمار، عبر إعادة استنطاق التقارير والسجلات الطبية الكاشفة عن السياسة الصحية الفرنسية، برؤية منهجية تركيبية لا تفتأ تتغيا تقييم تجربة الطب الفرنسي من حيث منجزاتها وهفواتها، وهو ما يضع القارئ أمام توثيق استوغرافي دسم عن فترة الحماية الفرنسية 1912-1956، يسائل المشهد الصحي عموما والثقافة الطبية خصوصا، وكذلك واقع البنيات التحتية الصحية وأشكال التدخل الاستعماري، دون إغفال عن

بنيات التدخل الطبي الاجتماعي بالمغرب، كل ذلك في مدار إشكالي يبحث في مقياس المسافة التي تفصل بين الصورة والواقع، بين التقارير الطبية ومعيش المغاربة اليومي.

قد يصح أن نعتبر الطب شفيعا للتجربة الاستعمارية الدرامية، قياسا بفضائله الوقائية التي على الأقل جنبت البلاد كثيرا من المآسي الإنسانية، ورتقت وضعا كان ينذر بمصائب صحية، بل ووضعت البلاد أمام سياسة وقائية تجاه الأمراض والأوبئة، لكن لا يجب أن نتغافل كما يلمح إلى ذلك الباحث نفسه إلى أن دائرة حضوره كانت محصورة بدرجة أساس على الأجانب ومناطق تنقلاتهم، وبأسبقية الأنا الاستعمارية على حساب الأهالي، وبخاصة في لحظات الحروب الكبرى التي تشهد تزايد حالات الموبوئين والمرضى بالمغرب، بسبب انشغال فرنسا بحروبها الأوروبية من جهة، إضافة إلى أن المغرب ظل يشكل فضاء لاختبار وفحص نجاعة بعض التلقيحات والأدوية وتجريبها على سكان الأهالي من جهة موازية، وإن كان النقد الأكبر يجب أن يُصرف نحو غياب إرادة الدولة الحامية في تذليل مسببات الأمراض والأوبئة من فقر وجهل و تهميش.

فهذا واحد من أساطين الأطباء الاستعماريين إدموند سيرجان يستعير أسطورة حدائق الهيسبريد، لينذر بالخطر الباتولوجي الذي يتجشم بالمغرب "... إن تنينا ذو مائة رأس ينتصب أمام حدائق الهيسبريد ذات التفاح الذهبي (الثروات) ليمنع كل من يقترب منها، وما هذا التنين سوى أوبئة التيفوس والطاعون وحمى المستنقعات وغيرها..." حيث يتكدس السكان في بالبؤس والأوساخ، ويتجمع الجياع والفضلات الحية، وتعج المدن بذوي الخياشيم المتآكلة والأروام والعاهات وطوابير العمي.

هندسة الكتاب:

كتاب صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912-1956، للباحث المغربي رضوان شعايبي، صدر سنة 2016، عن منشورات جمعية البحث والتوثيق، في حوالي 320 صفحة، يتضمن أربعة فصول مقسمة إلى مباحث، إضافة إلى فهرس للبيبليوغرافيا باللغتين العربية والفرنسية، وفهرس للجداول والصور والتعبيرات الجغرافية والمصطلحات الطبية،بتقديم البروفسور مولاي حسن فريح، رئيس لجنة التراث وعميد سابق بكلية الطب والصيدلة بفاس، والكتاب في الأصل عبارة عن أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بظهر المهراز بفاس تحت إشراف الدكتور سمير بوزويتة.

أولا: في رحاب الصورة ودلالاتها التاريخية:

تستند أطروحة رضوان شعايبي في تفكيكها لموضوعة الطب الاستعماري خلال فترة الحماية على مفهوم الصورة، بما هي تعبير عن تحول البنيات الاجتماعية والاقتصادية، وتمثيل لمستويات الخطاب وتعابيره، وكذا مرآة لقراءة عقلية البلد بغرض فهم الرؤية النفسية التي ينشئها المجتمع عن ذاته، أو ينشئها عنه الآخر(3)، وبقدر ما تنبني الصورة على الذاتية الاثنومركزية، فإنها غالبا ما تصطبغ بالتخييل، فتكون عاكسة لعلاقات المتخيّل والمتخيَل، جاذبة لعلاقات القوى واللاتوازن بين الفرقاء، مجسدة لتجاذبات الرفض والاستعلاء.

فالصورة هنا تحمل دلالة متموجة حسب السياق والدلالات، من صورة المغرب كبلد عتيق ومتوحش وبدائي إلى صورة بلد غرائبي وفوضوي...(4)، ما يهم ههنا هي صورة المغرب الصحي في كتابات الأجانب، حيث تنتشر الأمراض والأوبئة، ويضعف الاهتمام بالصحة، بمعية المجاعات والجذري والزهري والسل(5)، فإلى أي حد كانت هذه الصورة صادقة في تقديم مغرب ما قبل الحماية؟

يبدو أن الصورة التي رسمها الطبيب الفرنسي رينو عن مغرب القرن التاسع عشر تتقاطع في كثير من تفاصيلها مع صور عدة أجانب، من ذوي تخصصات مختلفة، إثنوغرافيين ورحالة وأحيانا عسكريين وحتى جواسيس، رسمت وضعا بالغ القتامة والسواد عن الإنسان المغربي الغارق في رُكام القذارة والعفن، الذي يعيش وسط فوضى سياسية ولا استقرار اجتماعي وانهيار جسدي، مغرب في وضعية احتضار بعبارة فريدريك وايسجرير(6)

صورة تضع المخزن كبنية سياسية في وضعية الجمود، في قفص الإدانة، تَعيب على المغاربة غياب الوقاية الصحية لديهم وضعف وعيهم الصحي، فهل كانت المخزن وحده مسؤولا عن الوضع الصحي بمغرب ما قبل الحماية؟ أم أن التقلبات البيولوجية الدورية التي تسم تاريخ المغرب عبر مختلف فتراته

تفسر هذا الوضع الصحي؟ أم في التقائهما هما معا بإضافة عوامل أخرى؟

تفيد إشارة الباحث المغربي محمد الأمين البزاز المتخصص في تاريخ الأوبئة والمجاعات أن الأوبئة التي اجتاحت بلادنا في بداية القرن التاسع عشر قد أحدثت هزات عنيفة، ساهمت بنصيب وافر في تزكية التدخل الأجنبي في ميدان ظل المخزن متغافلا عن الاشراف عليه بنفسه(7)، وهو تحليل يجعل تقلبات الطبيعة المغربية مسؤولة عن وضع المغرب الصحي.

كانت تقارير الأطباء الفرنسيين الذين وفدوا إلى المغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين مدخلا مهما نحو بلورة السياسية الاستعمارية، فقد كانت الموجه الأساس لكل فعل تدخلي في المناطق المغربية، أوَ لم تكن حادثة وفاة الطبيب الفرنسي موشان بمراكش سنة 1907 دليل إدانة على علاقة الطب بالاستعمار، أو لم يتم احتلال الدار البيضاء والشاوية بعد أسابيع قليلة من إصدار الطبيب الفرنسي وايسجرير كتابه عن منطقة الشاوية وأحوازها سنة 1907 (8)، كيف نقرأ هذا الالتقاء إذن؟

تخضع الصورة التاريخية التي صاغتها الاستوغرافيا الفرنسية عن المغرب داخل مثن الأطروحة إلى ثلاث موجهات أساسية:

1- صورة مغرب الأعيان والزعامات المحلية التي تركز على بيوغرافيات فاعلين محليين مثل أحمد الهيبة وموحى أو حمو الزياني ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، والتهامي الكلاوي والمتوكي والكندافي (4)، وهي صورة ترسم مغربا يتحكم فيه الأفراد الذين يجب الاعتماد عليهم في السياسة الاستعمارية.

2- صورة البؤساء المغاربة الذين يشكلون تهديدا للسياسة الاستعمارية، وينبغي الاهتمام بهم وتخليصهم من الوهن والبؤس من أجل الاعتماد عليهم كرصيد بشري لحظة الاستعمار.

3- صورة المغرب المعاصر التي ترسم وضع المغربي بعد الحرب العالمية الثانية من حيث تغير ذهنيته وتمدنه ونمط عيشه وصحت

ثانيا: نظرات على المشهد الصحي والثقافة الطبية

يتغيا الفصل الأول من هذا الكتاب تفكيك مقاطع من المشهد الصحي المغربي والثقافة الطبية بمغرب الحماية في كتابات الأطباء الفرنسيين، وهو فصل يمزج بين التشخيص التاريخي المتوسل بلغة الأرقام والإحصائيات، وبين التحليل الثقافي لطقوس المجتمع المغربي المستلهم لروح وأدوات الأنثروبولوجيا. يُخصص هذا الفصل في جانب منه لبعض الأمراض التي استشرت في فترة الحماية كحمى المستنقعات والزهري والسل وداء الرمد والجذام، وفي جانب آخر للأوبئة مثل التيفوس والطاعون والجذري، ويلَحظ القارئ عبر ثنايا هذا الفصل تبني الباحث لتقسيمات زمنية، تناغم مع التحولات الصحية التي اعترت مسار الصحة بالمغرب، تتيح إمكانية القيام بقياسات كمية ونوعية، من شأنها تقييم حصيلة التجربة الصحية بمغرب الحماية، قياسا بأرقام مؤسسات حفظ الصحة العمومية بالمغرب ومصالحها المتنقلة وبنياتها التحتية، ولعل ما يُعزز قوة هذا التشخيص الصحي توسل الباحث رضوان شعايبي بتحليل أنتربولوجي مواز عن أنماط تعامل مغاربة الأمس مع الصحة، من خلال تتبع العادات الغذائية المغربية وتغيرها حسب تواتر السنوات العجاف، وتقلبات الطبيعة المغربية وتعاقب الأزمات الاقتصادية والسياسية، وهو وضع ثقافي هش ومتغير، كان دائما يفرض على الأفراد التكيف مع مستجدات الوضع الصحي من أجل ضمان البقاء. ضمن نفس السياق يظهر الماء والسكن كواحد من العوامل المنتجة للقذارة والأمراض، وهو ما ينعكس على التربية الصحية خاصة لدى الأمهات والرضع، ويجعل الممارسة الشعبية لمداواة الأمراض خاصة العقم والأمراض النفسية والعين والجن والتوكال وغيرها تظهر في عين الأطباء غارقة في بحر الخرافة والجهل، ومن ثم يأتي الطب الأبيض بخبرته العلمية كمنقذ للمغرب ولأهاليه.

ثالثا: البنيات التحتية وأشكال التدخل الطبي

يتوقف الفصل الثاني من الكتاب على واقع البنيات التحتية الصحية في كتابات الأطباء الفرنسيين خلال فترة الحماية، متناولا بالتحليل المصالح الصحية والتنظيم الإداري والترابي والتشريعي لقطاع الصحة، مع التركيز على بنيات التكوين والمصالح التقنية المتخصصة في الأمراض والأوبئة، إضافة إلى المنشآت الاستشفائية بمختلف المدن المغربية، سواء كانت منشآت عامة أو مختلطة أو متعددة التخصصات (مستشفى كولومباني بالدار البيضاء)، أو وحدات طبية متنقلة.

يرصد الفصل الثالث من الكتاب أشكال التدخل الطبي بالمغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين، ذاك أن المغرب الذي استلمته فرنسا لم يكن يعاني فقط من فوضى السياسة، وإنما أيضا من الاضطراب الصحي وانتشار الأوبئة الأشد فتكا بالتجمعات السكانية (9)، وهو ما يفرض على الدولة الحامية ضرورة تفعيل تدخل فوري لمواجهة أعطاب البنية الصحية المغربية، لمكافحة حمى المستنقعات والأنوفيليات وتجفيف المستنقعات ومرض الزهري ومعاقل الدعارة ودار الرمد والجذام، ووباء التيفوس والطاعون، فليس هناك حسب إفادة الطبيب الفرنسي كولومباني شيء أكثر نجاعة من دور الطبيب كعامل للتوغل والاختراق، وكذلك للجذب والإغراء والتهدئة.

يستوقفنا الفصل الثالث من الكتاب عند ظاهرة مثيرة، يتعلق الأمر بالدعارة السرية التي انتشرت بالمدن الكبرى، خاصة الدار البيضاء، بفعل تحولات البنية الديموغرافية وتصدع الهياكل التقليدية وتشتت السدى الاجتماعي الناتج عن تواتر الهجرة القروية منذ بداية الحماية تحت تأثير انغراس الاستعمار الفلاحي بالبادية المغربية، يتعلق الأمر بصورة حي بوصبير بالدار البيضاء، حي هامشي وفقير، بئيس وقذر ومتسخ،مستعبد وماجن، يكاد يمثل الحديقة السرية للسياسة الصحية الفرنسية، ولربما وجهها القبيح، ظل ملهما للرسامين والشعراء والصحفيين والجنود المستقرين في الدار البيضاء، كفضاء راسبوتيني يحيي القدرة على الخيال والتخييل بمفاتن المرأة المغربية. يقول في هذا الصدد الطبيبان ماتيو وموري "... داخل بوصبير تجتمع حوالي ستمائة من المومسات..."، وفي موضع آخر "... أن المغرب كغيره من المجتمعات الأخرى تتفشى فيه الدعارة السرية، إذ يتعلق الأمر بنساء يمارسن البغاء إما بانتظام أو غير انتظام، يعشن حصريا على ما يكسبنه منه، أو يجدن فيه مكملا لمداخيلهن، ولكن في كلتا الحالتين معا، فإنهن يهربن من مقاييس الشرطة والمعايير الصحية القانونية للنظام التشريعي القائم بالمغرب، ويتم المرور من السرية إلى الشرعية في الدعارة، بطريقتين، إما اراديا أو كرها بعد مطاردتهن من طرف شرطة الأخلاق(10)

يعزز حي بوصبير كثيرا فرضية العبودية زمن الحماية، من خلال انتشار وكلاء وجماعات اقتصادية تنشط في تجارة الدعارة، تعتبر جسد المرأة مستباحا تحت ضغط واكراهات اليومي الاجتماعي، وتجعل الجسد الأنثوي حدثا اقتصاديا توجهه ثنائية العرض والطلب في المخيال الاجتماعي الذكوري، وهو ما كان يجعل حسب الباحث أحمد مكاوي انتشار الدعارة السرية غير المراقبة واحدة من المصادر الأساسية للإصابة بالأمراض وتفشيها (11).

النخبة المغربية المثقفة كانت على وعي كبير بخطورة التطبيب الأوروبي في استقطاب المغاربة، وغرس مرامي السياسة الاستعمارية، لكنها لم تكن قادرة صياغة بدائل طبية بإمكانها مواجهة الاستعمار، بل حتى أن ولوج النخبة إلى مهنة الطب كان شأنا مرتبطا بالمعمرين، بدليل أن أول عيادة مغربية فتحت أبوابها لن تأت إلا في بداية الخمسينات مع الطبيب المغربي عبد السلام العراقي الحاصل على الدكتوراه من فرنسا، مما يعضد فرضية أن الطب العصري كان شأنا فرنسيا بامتياز، حرم الأهالي من الحق في الارتقاء الاجتماعي نحو مهن النخبة.

يُضَمن الباحث رضوان شعايبي جملة استنتاجات بخصوص التنظيم الصحي بمغرب الحماية، الذي يجعله متسما بالتمييز السوسيومجالي بين الأوربيين والمغاربة، وفق قاعدة أولوية الأجانب على الآهالي، فالإسعافالصحي عوض أن ينشغل بحثالة البشر والمعتوهين والبؤساء والمرضى، الذين لا أمل لهم في الشفاء، وحماية العجزة والاطفال، ينبغي صرف عنايته بلا تأخير للحفاظ على العاملين وذوي النشاط من السكان(12).

كما أن السياسة الصحية الفرنسية كان ترسخ التفرقة والمفاضلة بين الأفراد، حسب درجة القرب أو البعد من سلطة الاقامة، فكانت الأولوية تمنح في العلاج للموظفين من طرف الادارة الاستعمارية (13)، دون أن نغض الطرف على أن المغرب كان حقلا لفحص وتجريب الأبحاث الطبية التلقيحات على الآهالي، والتأكد من سلامتها ونجاعتها.

وسم ألبير عياش حصيلة السياسة الصحية الاستعمارية في كتابه المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الاستعمارية على أنها بالهزيلة، قياسا بالنقص الحاد الذي شهدته قاعات الفحص، التي غالبا ما كان يطالها الازدحام والفوضى، وبقلة النظافة والإهمال في أغلب المستشفيات الخاصة، والنقص في المعدات والأطباء(14).

ورغم أن الطب كان وسيلة لمساعدة الامبريالية الاقتصادية، ويحمل وجها نفعيا لا يستهان به، وسلاحا من بين الأسلحة الاديولوجية التي وظفها الحكم الاستعماري في بسط هيمنته العسكرية، في سياق ما يسميه عرّاب الحماية هوبير ليوطي بتوفير المساعدة الطبية للأهالي، فإنه لا يستقيم انكار نتائجه الصحية في الرعاية والوقاية، رغم محدوديتها وهزالتها مقارنة مع الأضرار التي واجهت صحة الساكنة المغربية، مقارنة مع غياب الارادة الاستعمارية في مداواة المغاربة، لأن جهوده لم تصل بالنهاية إلى حد القضاء على الأمراض والأوبئة، وهو ما تشهد عليه عودة أعنف الأوبئة والأمراض خلال فترة الحماية، دون أن ننسى على الأقل تفصيلا مهما هو أن المفاهيم الصحية الجديدة ظلت على هامش المجتمع بدعوى تعارضها مع الوسط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمغرب.

رابعا: بنيات التدخل الطبي والاجتماعي

يقف الفصل الرابع من الكتاب عند بنيات التدخل الطبي الاجتماعي في كتابات الأطباء الفرنسيين من خلال رصد الأعمال الاجتماعية الطبية الخاصة بمساعدة العجزة والبؤساء والأجراء، عبر تتبع مشاريع الحماية في دعم الصحة بالمغرب في دعم البادية المغربية وتخفيف العطالة عن الشباب والاهتمام بالسكن الاجتماعي وحماية الطفولة والأمومة.

استنتاجات:

تغتني مساهمة الباحث رضوان شعايبي بالوصف والتحليل، التصنيف والتأويل والنقد، عمل تركيبي هام جدا يعمل على تنظيم المعطيات وتصنيفها وفق قضايا عامة تهم تاريخ المغرب في فترة الحماية، محاولة استوغرافية لتفكيك بنية الخطاب الصحي من حيث ثوابته ومتحولاته،من حيث تركيب وتأليف الصورة الاستعمارية عن تاريخ المغرب، وإن بدت صورة مثيرة للشفقة، ترسم مغربا معطوبا بالأمراض والأوبئة، صورة تقزيمية للمقومات الحضارية والثقافية والصحية التي راكمتها التجربة المغربية في ميدان الصحة، فإنها في الطرف الآخر، صورة تثني وتعدد المزايا التي حملتها التجربة الطبية الاستعمارية، وهي صورة كما ينتصر بذلك الباحث تغرق في الذاتية والإديولوجية الاستعمارية، وتخفي عيوب ونواقص التجربة الطبية الاستعمارية، لتظل الصورة غير مكتملة، ما دامت لم تستقرأ تجربة المحلي، حيث الطب الاستعماري لم يحظ لا بانخراط حماسي ولا برفض انفعالي من طرف المغاربة، فتعايش الطب الاستعماري مع الطب المحلي ظل قائما لدى المغاربة.

تطرح هذه الدراسة جملة ملاحظات أساسية بخصوص صورة الطب الاستعماري كتجربة وكممارسة وكتدبير سياسي، وهي صورة تضع هذه التجربة مفتوحة باستمرار على قراءات تاريخية متعددة، تتغير حسب مقياس الملاحظة التي ينطلق منها البحث والباحث، ويظل الباعث الأساس في هذه التجربة طرح سؤال جوهري، من استفاد من طب الحماية، هل المستعمِر بكسر الميم أم المستعمَر بفتحها؟ وكيف انتقل الطب من تدبير عسكري مرتبط بعمليات التهدئة العسكرية للقبائل والمدن إلى شأن مدني يؤمن الوقاية الصحية لأولئك البروليتاريين الجدد الذين ظهروا بهوامش المدن الكبرى؟ ولماذا تم إقصاء وحجب الثقافة الطبية المغربية بحجة همجيتها؟

ينتصر الأستاذ بوجمعة رويان في أطروحته حول الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945 إلى أن الطب الفرنسي لم يكن طبا انسانيا خالصا، بقدر ما كان اداة من أدوات الغزو والهيمنة، يروم تعبيد الطريق أمام جحافل الجيش الفرنسي، ويشجعه على مواصلة عمليات الاستيطان الاستعماري داخل البادية المغربية(15).فالطب الاستعماري كان يروم تحصين الرصيد البشري المغربي، الخادم لمشاريع وأنشطة الحماية.

والواقع، بدأ حقل التاريخ البيولوجي يحقق تراكما لا يستهان به في الإحاطة بمختلف الأمراض والأوبئة التي اعترت مسار التاريخ المغربي، وحسبنا هنا في الفترة التي تهم الحماية دراسة الباحث عبد المومن عيسى عن الصحة العمومية بالمغرب ما بين 1907- 1956، التي أنجزت تحت المؤرخ الفرنسي دانييل ريفي، الذي هو بدوره خلّف دراسات وأبحاث عن الصحة والتطبيب بالمغرب، ناهيك عن سلسلة الندوات والمقالات التي كتبت في هذا الشأن.

بدورها بلورت مدرسة الحوليات الفرنسيةرؤيتين مختلفتين بخصوص تناول التاريخ البيولوجيفي اشتباكه مع حقل التاريخ: رؤية تحليلية ترصد المرض منذ بدايته إلى نهايته، ورؤية



تركيبية تدرس الأمراض دراسة سانكرونية، في تطور الأمراض مع بعضها البعض زمانيا ومكانيا (16).

تحيل قراءة التجربة الطبية الاستعمارية على تداخل مثير بين الطب التقليدي المحلي، الذي ظل يتوسل بزيارة الأولياء واستعمال الرقى والتمائم والأعشاب، مستفيدا من وصفات الأنطاكي والسيوطي، نظير تجربة الطب الباستوري، وربما ساهمت عمليات الترهيب والتنكيل والضرب التي كان يتلقاها الأهالي في تنفير عدد كبير من الطب الاستعماري، ومن تم تعزيز الطلب الاجتماعي على الطب التقليدي، الذي ضَمِن مقومات الاستمرارية والبقاء أمام طب الرجل الأبيض.

تتوضح الصورة أكثر حينما نرتقي بالطب من ممارسة إلى حدث اقتصادي مرتبط باختراق النظام الرأسمالي للبنية العتيقة المغربية، وما صاحبه من تداعيات وشروخ إجتماعية ونفسية، زكت تنامي الهجرة القروية وارتفاع معدلاتها في فترات القحط والجفاف، وفي تآكل الرصيد الأخلاقي للمغاربة، بسبب توغل قيم السوق، مما يقود نحو طرح استفسار حول نجاعة الأساليب الصحية الاستعمارية، فكيف يمكن القضاء على داء السل مثلا في تغافل إدارة الحماية عن تحسين الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للمريض؟

هناك تفصيل آخر يدعو إلى التساؤل ساقه الأستاذ بوجمعة رويان في معرض أطروحته عن الطب الكولونيالي، كيف نفسر سكوت مصلحة الصحة العمومية عن ظاهرة الحمّامات بالمغرب التي من المفروض أنها ناقلة من نواقل الأمراض كالزهري و السل والأمراض الجلدية، في مقابل احتفاظها بالبيمارستانات التي هي بمثابة دهاليز سيزج فيها بغير المرغوب فيهم ممن يقلقون المارة ويعترضون سبيلهم من المعتوهين والحمقى (17).

ختاما، تنضاف مساهمة رضوان شعايبي إلى منجز البيولوجيا التاريخية التي تهدف إلى إقامة جسر وصل بين المتغيرات البيولوجية والوقائع التاريخية، وهي علاقة من شانها أن تثري حقل الدراسات التاريخية، وتنير عددا غير يسير من قضايا التاريخ، بل وتختبر فرضيات وإشكاليات جديدة من تاريخ المغرب المعاصر.

الهوامش:

- تروم هذه المساهمة تقديم قراءة في كتاب الباحث المغربي في حقل التاريخ رضوان شعايبي، حول:صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين، 1912-1955، جمعية البحث والتوثيق،الطبعة الأولى، .2016

2- Rivet Daniel, Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc (1912-1925), Tome 3, L' Harmatton, Paris, 1988, p.224.

3- بوزويتة سمير، مكر الصورة، المغرب في الكتابات الفرنسية (1832-1912)، افريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، 2007، ص .179

4- شعايبي رضوان، صورة المغرب في كتاب الأطباء الفرنسيين، مرجع سابق، ص 15-16

5- Raynaud(L), Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Alger, 1902

6- وايسجرير فريديريك، على عتبة المغرب الحديث، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الامان، مطبعة الأمنية الرباط، .2011

7- البزاز محمد الأمين، المجلس الصحي الدولي في المغرب: 1792-1929، سلسلة رسائل واطروحات رقم 49، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000/1421، ص .307

8- Weisgerber (F), Les Chaouia, Edition comité de Maroc, Paris, 1907.

9- شعايبي رضوان، صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين، مرجع سابق، ص .167

10- Mathieu Jean et Maury P.H, Bousbir : La prostitution dans le Maroc Colonial- Ethnographie d'un quartier réserve, Edite et présenté par Abdelmajid Arrif, Edition Paris- Méditerranée, 2003 p69.

11- المكاوي أحمد، الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأروبية في المغرب، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2009، ص .122

12- Colombani, La protection sanitaire de l'indigne au Maroc, Conférence faite aux journées Médicales coloniales de Paris (Juillet 1931) Imp. H. Blanc et G. Gautier, Rabat, 1932, p 8.

13-Vidrovich Coquery, Les Africains : La médecine coloniale, Edition Desjon quires, Paris, 1994, p 11.

14- عياش ألبير، المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة الشاوي عبد القادر والسعودي نور الدين، مراجعة وتقديم بنسعيد ادريس والسبتي عبد الاحد، منشور بدار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، ص .348

15- رويان بوجمعة، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطابع الرباط نت، الطبعة الأولى، 2013، ص.16

16-Revel Jacques et Peter jean- bierre, Le corps, L'homme malade et son histoire, In Le Roy Ladurie, Le territoire de l'historien, T 1, Gallimard, 1987.

17- رويان بوجمعة، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مرجع سابق، ص 453.